

مُحَمَّد مُحَارِب\*

# مراجعة كتاب شلومو زاند، متى وكيف توقفت أن أكون يهودياً

المؤلف: شلومو زاند.  
”

الناشر: كنيت وزموراه بيستان / ٢٠١٣.

عدد الصفحات: ١٨٠ قطع متوسط.

\* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

بحر الخزر- تدين بالوثنية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي. وفي أواسط القرن الثامن تهود ملك الخزر مع قسم من رعيته، ثم ما لبثت الديانة اليهودية أن انتشرت شيئاً فشيئاً بين قبائل وأعراق دولة الغزر، التي شملت قبائل التتار والترك والتركمان. يشير زاند إلى أن ضعف وانحلال دولة الخزر في ما بين القرنين العاشر والثاني عشر، أدى إلى هجرة اليهود الخزر منها إلى روسيا وأكرانيا ولি�طا وبولندا وبيلاروس وغليسيا وهنغاريا وأيضاً إلى أواسط أوروبا. ونتيجة لهذا الانتشار بات اليهود في أوروبا الشرقية من الأصول الخزرية يشكلون في القرن التاسع عشر ما يزيد عن ثمانين بالمائة من مجموع أتباع الديانة اليهودية في العالم. وبعد ظهور الثورة الصناعية هاجر أكثر من ثلاثة ملايين من هؤلاء اليهود إلى وسط وغرب أوروبا وإلى أميركا.

لقد سبق وأن أرخ لدولة الخزر وظروف تهودها وانهيارها وهجرة يهود دولة الخزر إلى أوروبا الشرقية، الكثير من المؤرخين من غير اليهود ومن اليهود الصهيونيين وغير الصهيونيين. ويأتي في مقدمتهم هركاكي البرت (١٨٣٥-١٩١٩)، وأبراهام بولاك (١٩١٠-١٩٧٠)، وأثر كوستлер (١٩٤١-١٩٨٣)، وشمعون دوفنوف (١٩٦٠-١٩٨٣). بيد أن ما يميز شلومو زاند هو أنه يكاد أن يكون المؤرخ الإسرائيلي الوحيد الذي يؤمن بـ "نهضة دولة الخزر" في نصف القرن الأخير. فمنذ الخمسينيات توقف صانعوا الذكرة في إسرائيل من التطرق إلى الماضي الخيري، كما يؤكد زاند، فسبح الماضي اليهودي الخيري بات في نظر قادة إسرائيل ومفكريها يمس بشرعية المشروع الصهيوني في حال معرفة أن المستوطنين اليهود الصهيونيين في فلسطين ليسوا ورثة "بني إسرائيل" وليسوا من سلالة إبراهيم، وإنما من أحفاد قبائل دولة الخزر.

يرى زاند أن ازدياد انتشار يهود دولة الخزر في مدن وسط وغرب أوروبا أدى إلى ظهور حركتين مهمتين كان لهما التأثير الأكبر على تاريخ اليهود الحديث وهما اللاسامية والصهيونية. ووضح زاند أن اللاسامية والتيار البروتستانتي الأصولي طرحا قبل ظهور الصهيونية فكرة أن اليهود يشكلون أمة وعرقاً، وأن فلسطين هي وطنهم القومي، وذلك في سياق عدائهم لهم وسعيهם للتخلص منهم وتهجيرهم إلى خارج أوروبا. ويستطرد زاند مؤكداً أن آباء الصهيونية تلقفوا أفكار اللاسامية المركزية وتبناوها، لا سيما تلك التي ادعت أن اليهود يشكلون قومية وعرق، وسعوا بجد ونشاط إلى تحويل الديانة اليهودية إلى قومية عرقية وإلى إعادة كتابة تاريخ اليهود واليهودية من هذا المنطلق وعلى أساسه. وفي هذا السياق قاما بعملية اختراق للشعب اليهودي وأخذوا ينسبون للمصطلحات الدينية معان ومضمون "قومية" جديدة لم تكن بها أصلاً، وقاموا كذلك باختراع فكرة "أرض-إسرائيل" كأرض جغرافية ذات أبعاد سياسية، وادعوا خلافاً للواقع التاريخية، أنه جرت عملية إجلاء ونفي لليهود من "أرض إسرائيل".

كتاب "متى وكيف توقفت أن أكون يهودياً" هو ثالث كتب المؤرخ شلومو زاند، أستاذ التاريخ في جامعة تل أبيب، التي يتصدى فيها إلى تزيف الحركة الصهيونية المنهجية والمستمر لنarrative history اليهود وتاريخ فلسطين. فقد صدر لشلومو زاند في عام ٢٠٠٨ كتاب "متى وكيف أخترع الشعب اليهودي"، وقد صدر له في عام ٢٠١٢ كتاب "متى وكيف اختُرعت أرض- إسرائيل". وحظيت كتب شلومو زاند هذه باهتمام واسع، وأثارت ضجة ونقاشاً في أوروبا وأميركا وفي بلدان أخرى. وقد كتب شلومو زاند كتبه هذه بالعبرية، التي ما لبثت أن ترجمت إلى لغات أخرى، حيث ترجم كتابه "متى وكيف أخترع الشعب اليهودي" إلى أكثر من عشرين لغة. يعتقد شلومو زاند بعلمية ومنهجية الهستريوغرافيا الصهيونية لتاريخ اليهود واليهودية وفلسطين، ويفكك ويدحض الرواية التاريخية الصهيونية المستندة إلى أساطير وخرافات دينية، ويكشف التزيف المتواصل الذي قام به قادة الصهيونية ومنظروها في سياق عملية البناء الهستريوغرافي الصهيوني من أجل شرعنة ومبرر إقامة دولة يهودية في فلسطين.

## انتشار ديانة وليس شتات عرق

يؤكد شلومو زاند في كتبه المذكورة أن اليهودية ديانة وليس قومية أو عرق وأنها ديانة تبشيرية، كغيرها من الديانات التوحيدية، انتشرت في مناطق واسعة من العالم القديم، من خلال تهود أعرق وقبائل كثيرة وشعوب مختلفة، وليس من خلال انتشار عرق كما تدعى الصهيونية. لا يرجع زاند انحسار الديانة اليهودية إلى طابعها أو لعوامل داخلية فيها تأبى نشرها والتبشير بها، وإنما لانتصار الديانة المسيحية في القرن الرابع الميلادي عندما تبنتها الإمبراطورية الرومانية، التي فرضت بدورها قيوداً على نشر الديانة اليهودية في أراضيها. يضاف إلى ذلك، ظهور وانتصار وانتشار الديانة الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي. فالديانة اليهودية انتشرت قبل ظهور وانتصار الديانتين المسيحية والإسلامية المنافستين لها، في أرجاء العالم القديم في مختلف مناطق الشرق الأوسط وفي حوض البحر المتوسط. فقد انتشرت اليهودية في فلسطين وبلاد الشام وفي صفوف الكثير من القبائل العربية في أرجاء الجزيرة العربية وفي أوساط أعرق عديدة في شمال أفريقيا. وتبنت العديد من الدول الديانة اليهودية مثل تهود إمارة حدياب في شمال العراق في القرن الأول الميلادي وتهود مملكة حمير في اليمن في القرنين الخامس والسادس الميلادي.

يشير شلومو زاند إلى أن انتشار الديانة اليهودية في مملكة الخزر كان له الأثر الأهم على تاريخ اليهود وعلى انتشار الديانة اليهودية وزيادة عدد أتباعها بنسبة مرتفعة للغاية. فقد كانت مملكة الخزر التي تأسست على سواحل بحر قزوين - الذي أطلق عليه العرب

الذين يدعون أنهم يتميزون عن غيرهم بالقيم الإنسانية والأخلاق المثلالية العليا. ويلحظ زائد الفرق الكبير بين النخب اليهودية في فترة انتشار اللامسماة في القرنين الماضيين، وبين النخب اليهودية في زمن أقول اللامسماة في العقود الأخيرة. ففي فترة انتشار اللامسماة تبني الكثير من المثقفين اليهود في العالم قيمًا وأفكارًا إنسانية كونية، ودافعوا عن الملحقين والمظلومين. ولكن مع أقول اللامسماة، بات الكثير جداً من المثقفين اليهود العلمانيين، محافظين، ييررون السياسات الإسرائيلية للعدوانية، والعنصرية ضد الفلسطينيين والعرب. ويعتبر زائد أن أقول اللامسماة في أوروبا وأميركا يشكل مشكلة لإسرائيل والصهيونية، إذ يعزز ذلك من اندماج اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية والأمريكية ويزيد من نسبة الزواج المختلط مع غير اليهود، التي تصل نسبته في الوقت الحاضر إلى خمسين بالمائة في الأحياء الشالية.

ويبرر زاند أنه في ضوء عدم وجود ثقافة يهودية علمانية وأفول للإسلامية، يبقى عاملان أساسيان يحافظان على الهوية اليهودية للعلمانية في أوروبا وأميركا وهما العلاقة مع إسرائيل وإحياء ذكرى لكارثة. ويؤكد زاند أن دور الكثير من هؤلاء "اليهود العلمانيين" في أوروبا وأميركا بات يقف مع العدوانية والظلم في العالم، ولا سيما في الدفاع عن سياسات إسرائيل العدوانية.

## من هو اليهودي في إسرائيل

بشير شلومو زاند إلى أن إسرائيل تعرف نفسها أنها دولة يهودية، وأنها دولة "الشعب اليهودي في العالم بأسره"، إلا أنها رغم ذلك لا تستطيع تحرير من هو اليهودي في خارج المضمونين الدينيين اليهوديين. فجميع محاولات الإسرائيلية والصهيونية في إسرائيل وفي خارجها التي جرت تتعريف من هو اليهودي من خلال الانتماء العرقي بواسطة بصمات الأصابع أو بواسطة الـDNA قد باءت بالفشل. ويسطرد زاند، وبما أنه يisis لليهود في العالم، لغة واحدة مشتركة، ولا ثقافة علمانية مشتركة، أصبح المعيار الديني هو الوحيد المتبقى لتعريف من هو اليهودي. وقد نجم عن ذلك أن شددت إسرائيل مؤسساتها المختلفة على يهودية الدولة، وحرصت دوماً على تعزيز المضمون الدينى اليهودى في المؤسسات التربوية والثقافية، وفي مختلف مؤسسات الدولة على حساب القيم الإنسانية. ولكن من ناحية أخرى، ما انفك النخب الفكرية العلمانية وقسم واسع من الطبقة الوسطى العلمانية تشتكى من الإكراه الديني في إسرائيل. وهذا الانفصام في الشخصية لا يزال يؤرق النخب واليهود العلمانيين في إسرائيل، لأنهم يريدون أن يبقوا يهوداً من دون اليهودية، ولم يستوعبوا أن ذلك غير ممكن.

يعزو شلومو زاند ازدياد العنصرية في إسرائيل وازدياد التشدد على  
يهودية الدولة في إسرائيل في العقود الأخيرة إلى أسباب عديدة أبرزها:

اقتلى تركيا واسترح

يعالج شلومو زاند في كتابه "لماذا وكيف توقفت أن أكون يهودياً"، الذي جاء في ١٨٠ صفحة، ماهية يهودية إسرائيل و מהاهية اليهود الصهيونيين في إسرائيل والعالم، لا سيما أولئك الذين يعرفون أنفسهم "يهوداً علمانيين"، ويقف على تعاظم سطوة القيم العنصرية في إسرائيل و انحطاط القيم الإنسانية فيها، وفي أواسط قطاعات من "اليهود العلمانيين" في العالم، الذين باتت وظيفتهم الأساسية الدوران في فلك تبرير جرائم إسرائيل بحق الفلسطينيين. وفي سياق نقهده وتعريته انحطاط قيم اليهود الصهيونيين في إسرائيل والعالم، يروي زاند نكتة يهودية قديمة مليئة بالسخرية الذاتية، ليدلل بها على الطابع الجمعي لأخلاق اليهودي الصهيوني في العصر الحديث، فيقول: تعطي أم يهودية روسية ابنها، الذي جُند في الجيش الروسي في حرب القرم في القرن التاسع عشر، زوادة من الطعام وتوصيه قائلة: "قتل تركياً ولا تنسى أن تجلس فوراً بعد ذلك لتأكل". فيجيبها ابنها: "حاضر يا أمي". ثم تلف الأم منديلاً حول رقبة ابنها وتضيف قائلة: "أيضاً، عندما تطلق النار على التركي لا تكشف نفسك للريح". ويجيبها ابنها: "حاضر يا أمي". وتضيف الأم موصية ابنها: "من المهم أن ترتاح قليلاً كل مرة بعد أن تهجم و تقتل أتراكاً". "طبعاً طبعاً" يجيب ابنها. وبعد تردد قليل يسأل ابن أمه: "وماذا إذا قتلتني التركي؟". تدهش الأم من سؤال ابنها وتفتح عينيها الواسعتين وتسأله باستغراب: "لماذا يقتلوك؟ ماذا فعلت له حتى يقتلوك؟".

يشير زائد إلى أن اليهود في العالم وفي إسرائيل درسوا التلمود وتتأثروا به في القرون الماضية أكثر بكثير من تأثيرهم بالتوراة. ويرى زائد أن استمرار تأثير اليهود المتدينين والعلمانيين بالتلמוד يشكل مشكلة أخلاقية تستدعي المعالجة. فالتلמוד كما يؤكد زائد وغيره، ينضح بالعنصرية وتنافس قصصه ورواياته الوضعية في ما بينها في احتقار وكراهية غير اليهود وفي تجريدتهم من إنسانيتهم. وليس صدفة، كما يقول زائد، أن يكتب الحاخام أفراهام يتسحاق هكوهين كوك، الحاخام الرئيسي للمستوطنين اليهود في فلسطين: "إن الفرق بين الروح اليهودية، في جوهرها ورغباتها وصفاتها وموافقها؛ وبين روح كل الأغيار بمختلف أنواعهم، هو أكبر وأعمق من الفرق بين روح الإنسان وروح الحيوان".

يصب شلomo زاند جام نقده اللاذع على اليهود الصهيونيين العلمانيين في العالم الذين ما انفكوا في عصرنا الحاضر يرددون ويتبنون فيما عنصرية. وفي هذا السياق يقول زاند أنه يوجد في "حكاية عيد الفصح"، التي يكررها اليهود في كل عيد فصح، دعوات يالحاقد الأذى بمن هم من غير اليهود، وهناك دعوة صريحة بيايادة الشعوب التي لا تؤمن باليهود "يهوه". ويضيف زاند أن هذه الدعوات لا يزال يكررها "يهود علمانيون" في نيويورك ولندن وباريس، وهولاء هم أنفسهم

وذلك باستثناء قطاع من اليهود المتدينين الذين لا تزيد نسبتهم عن سدس مجموع السكان اليهود في إسرائيل. فيطرح زائد السؤال المهم: ما معنى إذن أن تكون يهودياً في إسرائيل؟ يجب زائد على ذلك بتأكيده أن الأمر الأهم والحاصل في كونك يهودياً في إسرائيل هو أن تكون مفضلاً على غير اليهود في إسرائيل، وأن تتمتع بامتيازات وبحقوق أفضلية، لا يتمتع بها غير اليهود. أن تكون يهودياً يعني أن لا تكون عربية. اليهودية بهذا المفهوم وفق زائد هي التافهة للعربي الفلسطيني والتافهة لحقوقه الفردية والجماعية. أن تكون يهودياً في إسرائيل يعني أنك تستطيع أن تستوطن عنوةً في أرض ليست لك، في أرض يملكتها العربية الفلسطينية، ويعني أنك تستطيع أن تتسافر في طرق في الضفة الغربية المحتلة المخصصة لليهود فقط، ولا تتوقف في الحواجز العسكرية المنتشرة في الضفة الغربية المحتلة، ولا تعتقل ولا تتعرض للتعديب ولا يطلق عليك النار فتردى قتيلاً من دون ذنب ترتكبه ولا يهدم بيتك. فكل هذه الأعمال، التي هي غيضة من فيض جرائم الاحتلال الإسرائيلي في المناطق الفلسطينية المحتلة، موجهة ضد العرب الفلسطينيين فقط.

يرى شلومو زائد أن وضع المواطن اليهودي في إسرائيل في بداية القرن الحادي والعشرين يماثل وضع الرجل الأبيض في جنوب الولايات المتحدة في العقود التي سبقت ستينيات القرن الماضي، ويمايل وضع المستوطن الفرنسي في الجزائر في العقود التي سبقت استقلالها في عام ١٩٦٢، ويشبه وضع المستوطن الأبيض في دولة جنوب أفريقيا إبان نظام الأبارتهايد قبل عام ١٩٩٤، ويشبه وضع الألماني الآري في ألمانيا في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي. ثم يتساءل شلومو زائد كيف يمكن لإنسان نزيه غير متدين، إنسان ديمقراطي ولبرالي، ولديه الحد الأدنى من القيم الإنسانية، أن يستمر في اعتبار نفسه يهودياً. أليس مجرد تعريفك لنفسك كيهودي يحتوي على عملية اتخاذ قرار في الانتماء إلى فئة مفضلة تتمتع بامتيازات في إسرائيل التي تنتج حولها ظلماً لا يمكن تحمله؟ ويؤكد زائد أنه يعيش في أحد المجتمعات الأكثر عنصرية الموجودة في العالم الغربي. ويضيف، صحيح أن العنصرية موجودة بشكل أو بأخر في كل المجتمعات ولكن العنصرية في إسرائيل متفشية في كل مكان، وفي كل حيز عام، وتقوم الدولة بمؤسساتها المختلفة برعايتها ويجري تدريسها في مختلف المؤسسات التربوية والتعليمية في إسرائيل، وهي مغروسة في روح القوانين التي ما انفك الكنيست يشرعها. لقد بلغت العنصرية من الهيمنة والسطوة في إسرائيل درجةً لم يعد يدرك العن叙يون فيها أنهم عنصريين، ولا يشعرون إطلاقاً أن عليهم الاعتذار عن عنصريتهم. لذلك باتت إسرائيل منذ سنوات طويلة، وفق ما يراه زائد، نموذجاً يجله ويجله العنصريون وحركات اليمين المتطرف في أنحاء العالم، تلك الحركات التي كانت في السابق تعرف بأنها معادية للسامية.

أولاً، وجود عدد كبير من الشعب الفلسطيني تحت الحكم الإسرائيلي المباشر، سواء العرب الفلسطينيون الذين يعيشون في داخل الخط الأخضر أو العرب الفلسطينيون الذين يعيشون في "مناطق الأبارتهايد في الأراضي الفلسطينية المحتلة". ثانياً، فقام انتصار اليهود الصهيوني، وقيادته لإسرائيل في العقود الأخيرة، المدعوم من اليهود الشرقيين الذين يطلق عليهم زائد "أحفاد العرب - اليهود" النزعة العنصرية. فهوّلاء شددوا لأسباب عديدة ومختلفة على هويتهم اليهودية على حساب إسرائيليتهم، وأمعن قسم واسع منهم في عدائهم للعرب لإثبات يهوديتهم وانتمائهم للدولة اليهودية. ثالثاً، "استيراد اليهود الروس" في عقد التسعينيات من القرن المنصرم، الذين لم يكن لهم لا ثقافة ولا تقاليد يهودية، ما دفع إسرائيل ومؤسسات الدولة المختلفة إلى التشديد على يهوديتهم. ولم يكن ذلك سهلاً إطلاقاً، لا سيما وأن قسماً ليس بقليل من هؤلاء لم يكن أصلاً يدين باليهودية، بفاسد "اليهود الروس" يكتشفون بيهوديتهم بواسطة العنصرية الفظة ضد العرب تحت إشراف نخبهم العنصرية والجو العنصري العام السائد في إسرائيل ضد العرب.

وفي أجواء الاحتلال والبطش بالفلسطينيين وتجريدتهم من إنسانيتهم وازدياد الكراهية ضد العرب الفلسطينيين، المصحوب بهوس يهودية الدولة، أخذت التخب السياسي الإسرائيلي تشرع القوانين العنصرية في العقدين الأخيرين التي تشدد على يهودية الدولة وتميز ضد العرب الفلسطينيين، للمضي قدماً في الانتهاك من حقوقهم الأساسية. ويؤكد زائد أن القصد الدائم من طرح يهودية الدولة وسن هذه القوانين العنصرية هو تجريد العرب الفلسطينيين في داخل الخط الأخضر من حقوق المواطن. ولكي يوضح درجة الحالة العنصرية التي وصلتها إسرائيل، والمستوى الذي وصله الهوس العنصري بشأن يهودية الدولة، يجري زائد عدة مقاربات. فيقول إن الوضع القائم حالياً في إسرائيل يشبه كما لو قامت الولايات المتحدة باتخاذ قرار بأنها ليست دولة جميع مواطنيها الأميركيين، وإنما هي دولة الأنجلوساكسونيين البروتستانت المنشرين في العالم، فتميز ضد كل من لا ينتمي للأنجلوساكسينيين البروتستانت. ويشبه الواقع العنصري في إسرائيل تلك الحالة التي تنشأ إذا ما قررت فرنسا، مثلاً، أنها ليست دولة لجميع مواطنيها، وإنما هي دولة الغال الكاثوليكي، فتميز ضد كل من لا ينتمي للغال الكاثوليكي. وهو يشبه أيضاً تلك الحالة التي تنشأ إذا ما أعلنت بريطانيا أنها ليست دولة جميع مواطنيها وإنما هي دولة حصرية للإنجليز الأنجليلكان، فتقوم بالتمييز ضد الاسكتلنديين والويلزيين والإيرلنديين وأبناء المهاجرين.

ورغم كل هذا الهوس في إسرائيل بيهودية الدولة يرى شلومو زائد أن إسرائيل لا تسير وفق الديانة اليهودية ولا وفق التقاليد اليهودية،